التعليم الفلاحي في المغرب خلال الحماية الفرنسية
المدرسة المغربية للفلاحة في مكناس نموذجًا
(١٩٤٥ - ١٩٥٦)

د. أحمد سوالم

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
كاتب وباحث في التاريخ الحديث والمعاصر
سلا - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

الباحث: أحمد سوالم
إشراف: أ.د. بوجمعة رويان
إشراف: أ.د. المصطفى البوعناني

أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة – جامعة ابن طفيل ٢٠١٨م
٣٠٢ (صفحة)

كلمات مفتاحية:
الحرب العالمية الثانية؛ الاستعمار الفرنسي؛ الفلاحة؛ المجال الفلاحي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.186418

مُقدِّمَةُ

حفل حقل الدراسات التاريخية المغربية بعديد الأبحاث الجامعية، التي درست تاريخ المغرب من جوانب مختلفة، الا أنه يغلب عليها من حيث التناول التركيز على الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية، مهملة أو متناسية جانبًا مهمًا من المواضيع الاجتماعية والثقافية، التي بدونها يصعب فهم حقبة الحماية والمستعمر على حقيقته، ومن ضمنها التعليم الذي يُعَدّ من الأدوات الأساسية في صياغة السياسة الاستعمارية الفرنسية بالمغرب، باعتباره عاملاً من عوامل التجهيل ومن أدوات العمل الاستعماري.

واهتمامًا بهذا الجانب، احتضن مدرج الندوات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة، يوم 2018/7/25، مناقشة أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر تحت عنوان: "التعليم الفلاحي بالمغرب خلال الحماية الفرنسية: المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس نموذجا (*1945 - 1956*)" للباحث أحمد سوالم، تحت إشراف الأستاذين بوجمعة رويان والمصطفى البوعناني، وتكونت لجنة المناقشة من الأساتذة:

- نعيمة الحضري كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة: رئيسة.
- بوجمعة رويان كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة: مشرفًا ومقررًا.
- محمد لغرايب كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة: مشرفًا ومقررًا.
- عبد العزيز بل فايدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة: عضوًا .
- محمد اليزيدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز- فاس: عضوًا.

دوافع اختيار الموضوع

لا يخلو فعل اختيار الموضوع من قصد ودوافع، تحكمها مجموعة من القناعات الذاتية والعلمية، وقد تحكم في اختيارنا لهذا الموضوع:

دوافع ذاتية:

- عملي في سلك التعليم.
- ميلي لدراسة كل ما هو تعليمي.
- رغبتي في توفير بحث عن التعليم الفلاحي.

دوافع موضوعية وعلمية:

- ندرة الدراسات التاريخية حسب علمنا، التي اختصت بدراسة التعليم الفلاحي بالمغرب زمن الحماية عامة والمدرسة المغربية للفلاحة بمكناس خاصة.

الإطار الزماني والمكاني

يتخذ البحث الفترة (١٩٤٥-١٩٥٦م) إطارا زمانيا، لأهميتها في تاريخ المغرب لكونها صاغت وجددت صيرورته العامة، لدرجة يمكن القول إنها صنعت المغرب المعاصر.

١٩٤٥م: سنة لها دلالات تاريخية دوليًا ومحليًا، فهي تمثل:

نهاية الحرب العالمية الثانية وما خلفته من عواقب على كافة المستويات، وأبرزت أهمية الفلاحة ودور الغذاء والتغذية في الصيرورة الإنسانية.

معاناة المغرب من تبعات الحرب، حيث عرف المجاعة الكبرى، وما خلفته من عواقب اجتماعية وسياسية واقتصادية، وما أحدثته من وعي بضرورة التركيز على الفلاحة.

سنة إصلاح زراعي بالمغرب (البيزانا).

إحداث المدرسة الفلاحية بمكناس في صيغتها الجديدة.

إحداث مصلحة خاصة بالتعليم التقني بمديرية التعليم العمومي.

١٩٥٦م: تشكل نهاية الحماية الفرنسية بالمغرب وبروز دولة الاستقلال.

أهمية موضوع البحث

أهمية موضوع الفلاحة في حياة الإنسان، باعتبارها المصدر الرئيسي لتأمين الغذاء.

قلة الدراسات العلمية التي تعالج التعليم الفلاحي بالمغرب، وحاجة المكتبة المغربية لدراسات تاريخية تعالج قضاياه، لتستفيد منها الجهات المشرفة على التعليم الفلاحي عامة والمدرسة الوطنية للفلاحة بمكناس بما تضعه من معطيات تاريخية، الغرض منها المساهمة في تسهيل وضع حلول مناسبة للرقي بهذا النوع التعليمي.

أنها تلبي توصية المسؤولين عن التعليم الفلاحي بالبلاد العربية بدعوة الجامعات إلى الاهتمام به، بإجراء بحوث تناقش قضاياه بجميع أشكالها وأنواعها، ونحن عالجناه من مدخلات تاريخية.

تفتح الموضوع أمام الباحثين الآخرين لإجراء بحوث مماثلة حول التعليم الفلاحي زمن الحماية الفرنسية من مدخلات مختلفة، باعتبار فترة الحماية الفرنسية، هي التي حددت تاريخ المغرب المعاصر وطبعت حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

إشكالية البحث

الإشكالية المركزية:

انغراس فلاحة عصرية وظهور التعليم الفلاحي ومدارسه، خصوصًا المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس زمن الحماية الفرنسية، ومدى استفادة المغرب منها.

الإشكاليات الفرعية:

- ما هو التعليم الفلاحي؟
- ماهي الوضعية السوسيو اقتصادية للفلاحة المغربية زمن الحماية؟
- كيف نشأت فكرة إحداث تعليم فلاحي بالمغرب؟
- هل جاءت لخدمة وتنمية البلاد اقتصاديًا واجتماعيًا، أم وفق أهداف استعمارية صرفة؟ ماهي مدارسه؟
- ماهي خصوصية سنة إحداث المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس؟
- هل هي سنة أزمة غذائية، أم إصلاح فلاحي، أم هما معًا؟
- ماهي العوامل التي تحكمت في اختيار مكناس مقرا للمدرسة المغربية للفلاحة؟
- كيف يتأتى لمدرسة كهذه أن تؤتي ثمارها في مجتمع تقليدي متأخر، ينظر للتعليم المهني عامة والفلاحي خاصة نظرة دونية؟
- ماهي حدود استفادة المغرب منها سواء على مستوى تكوين الأطر الفلاحية العليا، أو على مستوى البحث والتجريب الفلاحي؟

منهج البحث

اعتمدنا لتفكيك التعليم الفلاحي ومدارسه والمدرسة المغربية للفلاحة بمكناس زمن الحماية، على مناهج متعددة منها:

- المنهج التاريخي.
- المنهج المقارن.
- المنهج الإحصائي.

وذلك راجع لطبيعة موضوع الأطروحة، حيث يتداخل فيه ما هو تاريخي بما هو اقتصادي، والمتنوع كذلك من حيث حقوله المعرفية المتعددة (الاقتصاد والتاريخ الاجتماعي وتاريخ المؤسسات).

هيكل البحث

فيما يخص التصميم الإجرائي لتنفيذ خطة البحث، فقد تم توزيعه إلى بابين، وعدة فصول مسبوقين بمقدمة، ومذيلين بخلاصات واستنتاجات وملحق.

الباب الأول خصصناه لدراسة التعليم الفلاحي بالمغرب خلال الحماية الفرنسية، مركزين في الفصل الأول، على دراسة الفلاحة المغربية وأهمية البادية في السياسة الاستعمارية من خلال الاستيطان الزراعي والإصلاح القروي، وبدايات دخول التعليم الفلاحي للمغرب وأهدافه ومستوياته. أما في الفصل الثاني، فقد ركزنا على المدارس التي كانت تقدم هذا النوع من التعليم زمن الحماية.

الباب الثاني خصصناه لدراسة المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس، من خلال التركيز في الفصل الأول على خصوصية زمن ومكان إحداثها، وتطرقنا في فصله الثاني لمدى مساهمة المدرسة في تكوين الأطر الفلاحية والبحث الزراعي والنهوض بالقطاع الفلاحي خلال الحقبة الاستعمارية، ومدى حضور العنصر المغربي. وتم ختم البحث بخلاصات واستنتاجات وملحق.

خلاصات واستنتاجات

نرى من المجازفة والسابق لأوانه إصدار خلاصات وأحكام نهائية، حول التعليم الفلاحي زمن الحماية الفرنسية من جهة والمدرسة المغربية للفلاحة بمكناس من جهة ثانية، بيد أن تفاعلنا مع الموضوع طيلة مدة إنجازه مكننا من بلورة مجموعة من التصورات والاستنتاجات، يمكن إجمالها فيما يلي:

- **تنوع مدارس التعليم الفلاحي والجهات المشرفة عليه زمن الحماية، إذ تشترك فيه مديرية التعليم العمومي ومديرية الفلاحة والغابات.** ويلاحظ غياب التنسيق والتكامل والترابط بين هاته المؤسسات بمختلف مستوياتها، بسبب عدم تحديد الحاجيات من كل نوع ووظيفته في مهنة الفلاحة ام كانت وراءه أهداف استعمارية صرفه، وليس المساهمة في تنمية وتحديث الفلاحة المغربية زمن الحماية. ما يجعلنا نتساءل: **لماذا لم يتم تجميع هذا الخليط المتنوع من المدارس في نمط واحد، أم أن أهداف سلطات الحماية الفرنسية تقتضي ذلك؟**
- **على مستوى التوزيع الجغرافي لمؤسسات التعليم الفلاحي:** هل تعاملت الحماية الفرنسية عند إحداثها لهذا النوع التعليمي مع مناطق وساكنة المغرب ككتلة اجتماعية واحدة؟ أم أخذت بعين الاعتبار الأهمية الاقتصادية للمناطق والعناصر الطبقية والعرقية؟ إلا أن ما يلاحظ، فباستثناء المدارس القروية التي تمثل مرحلة تمهيدية، فإن غالبية المدارس الفلاحية المتوسطة والعُليا استفاد منها ما يصطلح عليه "**المغرب النافع**" (الدار البيضاء، مكناس، فاس، ومراكش) أكثر من المناطق الصحراوية و الجبلية النائية حيث تم التركيز على المدن التي كان يستقر بها المعمرون خدمة للاستيطان الفلاحي، ليصبح التعليم الفلاحي عنصرا من عناصر التمييز السوسيو- مجالي بالمغرب خلال الحماية الفرنسية، ووسيلة من وسائل الاستغلال الاستعماري وتحسينا لظروف عمل المعمرين، من خلال توفير الأطر الفلاحية المؤهلة لتسهيل استغلالهم لخيرات البلاد في ظروف ملائمة.
- **عدم مراعاة التسلسل والتدرج في إحداث التعليم الفلاحي أي الانطلاق من المستويات الدنيا إلى العليا،** إذ قامت فرنسا بتوفير المستوى الابتدائي، ثم أنشأت المستوى العالي خلال الحرب العالمية الثانية، ثم المستوى المتوسط في بداية الخمسينيات. ما يعكس أن إحداث هذا النوع التعليمي لم يأت في إطار برنامج مدروس، محدد الأهداف، وإنما تلبية لحاجيات وضرورات اقتصادية وأهداف استعمارية قائمة على الاستغلال البشري والاقتصادي لثروات البلاد.
- **لم يكن إحداث التعليم الفلاحي زمن الحماية، متسقا مع خطط التنمية البشرية والاقتصادية،** لكونه لم يكن يهدف لإحداث تنمية بشرية واقتصادية بالبلاد، بل يهدف لتحقيق أهداف استعمارية محضة، كما أنه لم يكن وفق تلك الأهداف الحضارية والإنسانية التي روج لها الاستعمار، بل أداة من أدوات الغزو والهيمنة. فقد تم تنظيمه قبل الحرب العالمية

الثانية، وفق المبادئ التي صاغها ليوطي وطورها هاردي القائمة على حصر الفئات الاجتماعية في وسطها، لذلك تم التركيز على المستوى الابتدائي وقد أعادت فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية النظر في سياستها التعليمية واستفاد التعليم الفلاحي من ذلك، حيث تم إحداث المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس (١٩٤٥) والمدارس التطبيقية الفلاحية، كزافيي برنار بفضالة، وغراسة البساتين بمكناس، والسويهلة بالقرب من مراكش، في بداية الخمسينات، إلا أن ما قدمته هذه المدارس كحصيلة للفلاحة المغربية يبقى ضعيفًا ومحدودًا.

- **الإصلاح القروي "البيزانا" الذي قامت به فرنسا زمن الحماية، والذي تم الحديث فيه عن جعل المغرب كاليفورنيا جديدة، فرضته ضرورات منها فقدان المغرب لأمنه الغذائي وظهور مجاعات**. إلا أنه باء بالفشل بسبب عوامل داخلية، وأخرى مرتبطة بالمستعمر، لكون هاته المحاولة، لم توازيها عملية تحديث شامل وكلي، ولم تكن منبثقة من تطور ووعي داخلي وشعور بضرورة ووجوب الإصلاح.
- **تُعَدّ المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس المدرسة الوحيدة بالمغرب التي كانت تقدم تعليمًا فلاحيًا عاليًا زمن الحماية**، وأحداثها لم يكن خاضعًا لمقتضيات ومتطلبات التنمية الفلاحية آنذاك، بل كان محكومًا بالمخططات والاختيارات الاستعمارية الهادفة لاستغلال خيرات البلاد وساكنتها.
- **قامت السياسة الاستعمارية العامة على رفض اتجاه الأهالي نحو المسالك التقنية، وهي سياسة نهجتها فرنسا في باقي البلدان المغاربية**، فقد وجد المغاربة صعوبة في الاستفادة منها، ما يعكس غياب العنصر المغربي عن الأطر المتخرجة من المدرسة المغربية للفلاحة، فإلى حدود سنة ١٩٥٤ تخرج (١٣٦) طالبًا منهم (٥٦) بدرجة مهندس، لا يوجد منهم أي مغربي مسلم ويمكن إرجاع ذلك لعدة أسباب منها:
  - تمركز المصالح الأساسية في الإدارة المغربية خصوصا المصالح التقنية منها في يد الفرنسيين، فقد حاولت السلطات الحامية إبعاد الأهالي عنها لتجنب الاستفادة من الخبرة الأوربية، وهو ما انعكس على سياستها التعليمية في الميدان الفلاحي، حيث عمدت فرنسا إلى الحد من ولوج المغاربة للمدرسة المغربية للفلاحة تجنبا لتكوين نخبة قادرة على معرفة التقنية العصرية.
  - غالبية الشباب المغاربة والذين يمكنهم متابعة دراستهم العليا بمثل هاته المدارس هم من العائلات التقليدية المحافظة، التي يتسم تكوينها العلمي بكونه عربيًا إسلاميًا، وهم بعيدين عن الدراسة باللغات الأجنبية أو التكوين العلمي.
  - نظرة المجتمع والنخبة المغربية المثقفة الدونية للتكوين في المجال الفلاحي لكونه يقوم على العمل اليدوي، حيث تعتبر الأسر التحاق أبنائهم بهذا النوع فشلاً في متابعة دراسات جامعية تؤهلهم ليكونوا نخبة في البلاد مما جعل الشباب المغربي خلال هاته الفترة لا يتوجه نحو الدراسات العليا الفلاحية.
  - وتمثل هذه النظرة الدونية للتعليم الفلاحي، المجتمع المغربي، واتجاهاته ونظرته إلى المهنة الزراعية نفسها والى العاملين فيها، والتي من أبرزها التحيز إلى التعليم الأكاديمي دون المهني، وللمدينة دون القرية، وللذكور دون الإناث.
  - ساهمت العوامل السالفة، في قلة العنصر المغربي بالمدرسة المغربية للفلاحة بمكناس زمن الحماية، ما جعل البلاد تعاني من ندرة وقلة الأطر العُليا إذ أن عدد المهندسين المغاربة في جميع التخصصات بعد الاستقلال، لا يتعدى ثلاثين مهندسًا، معظمهم تكونوا بالخارج، ونفس الخلاصة تنطبق على الأطر الفلاحية، لتجد البلاد نفسها بعد الاستقلال في مواجهة مشاكلها الفلاحية.

الآفاق التي يفتحها البحث

لسنا ندعي أن بحثنا استنفذ جميع القضايا المتعلقة بالتعليم الفلاحي عامة والمدرسة المغربية للفلاحة بمكناس خاصة، بل يمكن أن تكون النتائج التي توصل إليها منطلقا لأبحاث جامعية أخرى، تتولى وصف وتفسير وتفكيك التعليم الفلاحي خلال الحماية الفرنسية من زاويا مختلفة، كالأصول الاجتماعية لتلاميذ التعليم الفلاحي وغيرها. خصوصًا وأن حلقات السياسة الفرنسية بالمغرب في مجال التعليم مختلفة وجد معقدة وغير واضحة بما فيه الكفاية، تخللتها مراحل مد وجزر وصعود وهبوط، لكونه كان مرتبطًا بالمصلحة السياسية والاقتصادية والإيديولوجية للمستعمر.